الأمير عبد القادر بين التصوف والفلسفة

الأستاذة/ بوجلال نادية

جامعة الجزائر02

مقدمــة

ما نصيب التنظير في كتابات الأمير عبد القادر الجزائري؟ ما مدى بعدها أو قربها من التجربة الروحية الصوفية؟ وكيف جمع بين الباحث عن اليقين والكمال وبين رجل الدولة والمفكر؟ هل هو الحاضر الغائب أو المنقطع للعبادة البعيد عن واقع العالم الإسلامي ورجالاته وأفكاره؟ هل استند إلى خلفية فكرية حدد وفقها معالم عمله السياسي ومواقفه من قضايا عصره؟ وما منهجه في ذلك؟ ما مدى التماثل و التباين في الفكر النظري والعملي للأمير [1] ؟. تلك إشكاليات ظلت تعترض طريق الباحثين على اختلاف مشاربهم، وظلت تحيط الأمير وأفكاره ونهجه على اختلاف مجالاتها وأزمنتها.

لن نخوض مع الخائضين حول الأمير عبد القادر وحقيقته ووطنيته وماسونيته فلن نمدح مع المادحين ولن نقدح مع القادحين، وسنكتفي بالتاريخ كشاهد على هذه الشخصية وعلى حياته المملوءة بالعلم والعمل والتنقل و التواصل مع أمم مختلفة وشخصيات تاريخية هامة، شخصية لو عاشت في بلاد المشرق لجفت الأقلام في سرد مآثرها، ولأننا تعودنا تقزيم عظمائنا والتنقيب فقط عن زلاتهم سنحاول توخي الموضوعية بادئين بالمطابقة بين الأمير ومنهج الإصلاح السياسي.

الأمير و المنهج الإصلاح السياسي:

أجمعت كتب التراث السياسي (الإسلامي) على أن الإصلاح يكون على المستوى السياسي، والإداري في الدولة الإسلامية، وإصلاح موارد ومصارف الدولة،وبيان مصادر الأموال التي تنفق مع نصوص الشريعة الإسلامية (الكتاب والسنة)،وبيان ما يعارض ذلك مع إصلاح الجهاز الإداري للدولة بتولية الأصلح في كل ولاية، ومحاربة الفساد بتطبيق العقوبات الشرعية، والتأكيد على أهمية الشورى في اتخاذ القرار الأنسب إذا لم يرد في ذلك دليل شرعي، وبذلك تكون خصائص الإصلاح السياسي مايلي:

- الكتاب والسنة هما المرجعية الأصلية في تدبير أمور الحكم.
- إقامة السياسة العادلة تأدية الأمانات و الحكم بالعدل.
- التأكيد على السياسة الشرعية يقتضي إصلاح الإدارة في الدولة باستعمال الأصلح فالأمثل فالأمثل.

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

– أهمية مراعاة المقاصد واختيار الوسائل التي تؤدي إلى تحقيق المقاصد المشروعة.

– التأكيد على اعتبار المصلحة الشرعية بتحصيل المصالح وإبطال المفاسد وتقليلها وعند التعارض تحصل أعظم المصلحتين بتفويت أدناها، ودفع أعظم المفسدتين مع احتمال أدناها.

– بيان القصد من الولاية والسلطة السياسية في الإسلام أن تكون كلمة الله هي العليا ويكون الدين لله [2].

إذا كانت هذه هي المبادئ والقوانين والقواعد التي يؤسس عليها المنهج الإصلاحي الإسلامي فأين تقع منه أفكار الأمير عبد القادر؟ أو هل في أفكار الأمير ما يتطابق مع هذا المنهج العام الذي سار فيه مؤلفوا هذا الاتجاه ومؤلفاتهم؟

قبل الإجابة على هذه السؤال وقبل عقد المطابقة لابد من الإشارة إلى اختلاف بلاد المغرب بأوضاعها الاجتماعية والثقافية عن بلاد المشرق ، وخاصة حالة التفكك الاجتماعي الذي كان سببه التباين بين المدنية والبادية مما أحدث علاقة صدامية بين بيئتين اقتصاديتين واجتماعيتين وثقافيتين تنتفي فقط عند تهديد العدو والتوحد من أجل الدفاع عن الكيان الوطني والجهاد من أجل إنقاذ المسلمين.

هذا وقد ساهم - إدراك حالة التدهور الشديد لجميع الفئات الاجتماعية – في انبثاق حركة فكرية وسياسية وثقافية تضافرت لتنتج ثورة الأمير عبد القادر في الجزائر سنة 1832، كما أدرك الفكر الإصلاحي في بلاد المغرب خصوصية المنطقة المغاربية الحديثة في صراعها مع الاستعمار الفرنسي، وكنتيجة لهذه الخصوصية المغاربية تفاوتت الأهمية بين التنظير والعمل السياسي ، الذي ظل أكثر فاعلية عند النخب الإصلاحية[3] عموما وعند الأمير عبد القادر خصوصا. حيث اقتصرت غاية الإصلاح الإسلامي على نقد الاستبداد والدعوة إلى الحرية وتحقيق العدل بالدولة الوطنية على أساس الشورى واللامركزية ومقاومة الإستعمار وذلك بالسعي إلى إصلاح الدولة العثمانية وليس بمحاربتها أو تقويضها،ولكن لتكون دولة تستوعب نموذج الدولة الحديثة علما أن هذا المفهوم ظل يتأرجح بين التصاعد والانحدار بحسب ظروف المجتمع الإسلامي، فلم يسقط مفهوم الدولة بحسب الرؤية الأوروبية (مفهوم الدولة القومية) على مفهوم الدولة الإسلامية و لم يخض في نقاشات علاقة الدولة بالدين كما فعل غيره، وإنما الدولة التي تتفاعل فيها العلاقات الإنسانية وفق المناهج التي وضعتها الشريعة الإسلامية[4]، والدولة التي توجه المجتمع التوجه المطلوب وتشرف على سلامته بمالها من سلطان وقوة.[5]

لقد أراد الأمير تطبيق منهج قيادي شامل، تحت راية واحدة، ويجسد مبدأ الشورى في اتخاذ القرارات منذ بيعته الأولى التي عاد فيها إلى رأي محيطه الاجتماعي ثم إلى الاستفتاء عن طريق استشارة الشعب ويعطي بذلك مثلا تطبيقيا متطورا في منهج الحكم والقيادة في الجزائر بكل خصوصياتها.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مفهوم الدولة في فكر الأمير السياسي:

استطاع الأمير أن يحيك تلافيف مشروع دولة حديثة فكرا وعملا في وقت مبكر من القرن التاسع عشر، شكل المقدمة للدولة الجزائرية الحديثة بجميع مقوماتها، بعد أن كانت ولاية من ولايات الدولة العثمانية، يحكمها الباشاوات والدايات والأغوات.

تستند دولة الأمير على مرجعية دينية، وثوابت خلقية ومبادئ إنسانية، مصدرها الشريعة الإسلامية (الكتاب والسنة)، ومبدؤها الشورى كطريق وحيد يوائم بين العقل والنقل لفهم الواقع واستيعاب مشكلاته المستحدثة وإيجاد الحلول لها.[6]

لقد كانت دولة الأمير تعبيرا عن تجربة حديثة ومبكرة لمشروع وحدوي يضم أبناء وطنه ويترجم قدراتهم ويسوي بينهم في ظل العقيدة الواحدة، يستشف كل من يقيم هذه التجربة شقين متكاملين : شق واقعي يتمثل في ما أنجزه من أنظمة هيكلية وما بناه من مقومات لدولة عصرية وما شاده من عمران، وشق فكري قوامه هذا التراث الفكري والثقافي الذي تركه للأجيال[7]. وهو ما جعل أبا القاسم سعد الله يقول: "ولكن صلته بزعماء العصر لم تكن كلها في الجانب السياسي النشيط، بل كانت أيضا في الجانب الفكري و الديني الهادئ."[8]

وينطلق الأمير في تنظيره من فكرة أساسية وهي أن معرفة الحق تكون بالدليل وليس بالتقليد، رافضا بذلك التقليد الأعمى للغير، فأسس لنزعة عقلية خالصة حيث يقول:"إن أقوال العلماء والمتدينين متضاربة ومتخالفة في الأكثر، واختيار واحد منها وإتباعه دون دليل باطل"[9]. ووضع برنامجا لتشخيص أسباب الباطل والجهل، أغلبها ذاتي مرتبط بالفرد مثل:

- ما يشوب القلب من نقص كقلب الصبي.
- الانشغال بالدنيا مما يؤدي إلى المكدورات التي تتراكم على القلب.
- العدول بالقلب عن جهة الحقيقة.
- حجب العقل بمعتقدات مسبقة أو عن طريق التقليد.
- الجهل بما يقع عليه المطلوب.

و يرى بأن العقل له استعداد باستقبال العلوم النظرية و البديهية، و له القدرة على إدراك تقلب الأحوال، و معرفة نتائجها،و قمع الشهوات على مستوى النفس،وبالتالي يميز بين الإنسان كحيوان عاقل* وبين بقية الكائنات بما يملكه من أفكار فطرية وأخرى مكتسبة عن طريق الخبرة والتجربة وعلى هذا الأساس قسم البشر إلى فئتين:

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

منها العملي والنظري، أي بين مدرك للكليات وغير مدرك لها كما هو حال علماء فرنسا الذين"ما جاءوا ليجادلوا الفلاسفة ولا لإبطال علوم الطب ولا علم النجم ولا علوم الهندسة".[10]

فالعقل واحد لا تناقض في آلياته، وقدراته، وخطاباته، فالخطاب الديني لا يتناقض مع الخطاب الفلسفي والخطاب العلمي، لأن الحقيقة ملك للبشر جميعا لا تخضع لانتماء، عقائدي أو قومي، وبذلك يميز بين الحقيقة الإلهية والحقيقة التاريخية المتغيرة.[11]

ومن هذه القاعدة ووفق هذا المنهج شن حربه الشعواء على الجهل والجهلة، والشعوذة ورجال الطرقية، وحارب الفتنة بين القبائل لتحقيق الوحدة، ووفقه مارس بناء دولته الوطنية الحديثة التي لا تحيد عن الكتاب والسنة ولا تحيد عن العقيدة والإيمان[12]. يقول"ومن أجل ذلك،إذن،تولينا هذه المسؤولية الهامة(على مضض شديد) آملين أن يكون ذلك وسيلة لتوحيد المسلمين، ومنع الفرقة بينهم وتوفير الأمن العام إلى كل أهالي البلاد، ووفق كل الأعمال غير القانونية التي يقوم بها الفوضويون ضد المسلمين، وصد وطرد العدو الذي اعتدى على بلادنا مريدا أن يغل أعناقنا بقيوده".[13]

ولقد حرص الأمير أولا أن يكون لهذه الدولة كيان جغرافي يتألف من أرض محددة وساحل يطل على البحر يمكنها من الاتصال بالخارج *(الاستلاء على وهران والساحل البحري)، وتحديد علاقتها الدبلوماسية والتجارية مع بقية الدول، وتقويتها اقتصاديا، ولأنه أدرك تركيبة المجتمع الجزائري القبلي، كسب بعض القبائل بالمبايعة وتفاوض مع البعض الآخر مقابل تسويات سياسية وعسكرية وقيادية.و قاتل من تخلف عن المبايعة الثانية، وأنشأ ما سماه بالعقد من أجل غاية واحدة وهي الإصلاح يقول" ولذلك ندعوكم إلى أن تشاركوا في هذا العهد أو العقد، بيننا وبينكم. سارعوا إذن، لإعلان ولائكم وطاعتكم، والله يجازيكم في الدنيا والآخرة. إن هدفي الأساسي هو الإصلاح وفعل الخير مادمت حيا. وإن ثقتي في الله، ومنه هو وحده أطلب الثواب والنجاح".[14]

– مقومات الدولة الأميرية على ضوء الفكر السياسي الحديث:

دولة الأمير عبد القادر وإن انتظمت وفق سياق كلاسيكي معروف* في تنظيم الدول التي تستند في قوانينها وتشريعاتها على الكتاب والسنة كما قال الأمير :"ولقبول هذه المسؤولية اشترطنا على كل أولئك الذين منحونا السلطات العليا أن عليهم دائما واجب الخضوع، في كل أعمالهم إلى نصوص وتعاليم كتاب الله وإلى الحكم بالعدل في مختلف مناطقهم طبقا لسنة النبي، وأن يعاملوا القوي والضعيف، النبيل والمحترم بالأنصاف ودون محاباة وقد قبلوا هذا الشرط".[15]

فقد كانت لها مؤسسات قانونية وسياسية وتجارية وهياكل وفق نصوص وتشريعات محددة سواء على الصعيد الداخلي أو الخارجي تحترم ما تقتضيه مجريات الأحداث وتطور الأمور، يقول في رده على صديقه

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الإمام شمويل:"إن ما سمعته عنا، وما أثار إعجابك بنا بخصوص دفاعنا عن المعاهدين والحماية التي وفرناها لهم في أشخاصهم وأملاكهم، طبقا لإمكانياتنا وقدرتنا –كل ذلك كما تعلم، لم يكن إلا بتنفيذ شريعتنا الطاهرة والمقتضيات الإنسانية، حقا إن شريعتنا تأكيد لكل ماهو خير وهي تشتمل على جميع الفضائل اشتمال القلادة على العنق".[16]

ولايمانه بالشريعة كثابت والتاريخ كمتغير، امن بأن السياسة ظاهرة اجتماعية لها علاقة بالسلطة التي تستمد مبادئها العامة من مرجعية دينية تفتح الباب واسعا لاجتهاد ذوي لإختصاص، وهذا ما عبرت عنه رسالته إلى فقيه المغرب عبد الهادي العلوي الحسني قاضي قضاة فاس التي أراد بها التحريض على التفكير لأنه أدرك ما أفرزه الوضع الجديد من علاقات، وما أقامه من مؤسسات ومشكلات تبحث لها عن حلول في إطار الشريعة الإسلامية مع مراعاة اختلاف الزمان والمكان ومنها : مشكلة القبائل التي فضلت الحكم الفرنسي، ومشكلة القاعدين عن الجهاد ومشكلة توفير الميزانية للجهاد، وبهذه الرسالة يكون الأمير قد فجر جملة من الأسئلة الجوهرية أولها كيفية إعادة تنظيم وترتيب المجتمع الجزائري المؤهل للدفاع عن وجوده وعقيدته، ثانيها علاقة الفقه بالمجاهد أو السياسي[17]، وهذا نصها

" السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد، فما حكم الله في الذين دخلوا في طاعة العدو الكافر باختيارهم، وتولوه ونصروه، يقاتلون المسلمين معه، ويأخذون مرتبه كأفراد جنوده، ومن ظهرت شجاعته في قتالهم للمسلمين، يجعلون له علامة في صدره عليها صورة ملكهم، هل هم مرتدون أم لا؟ وإن قلتم بردتهم فهل يستتابون أم لا؟ وما حكم نسائهم، هل هن كرجالهم أم لا؟ وإن قلتم أنهن مثلهم فهل يحكم باستثابتهن أو من الإجماع على أن المرتد لا تسبى ذريته، منقوض بما نقل عن ابن وهب وعن جمهور الشافعية أن المرتد كالكافر الأصلي أم لا؟ وهل يسوغ لنا العمل بما ينقل عن أصحاب مالك عن الأقدمين كابن وهب وأمثاله في طبقته في هذه النوازل وأمثالها مما لم يشهره المتأخرون أم لا؟

أجيبوا أدام الله وجودكم جوابا شافيا يشفي المرض ويأتي على الغرض محيطا بالتفاصيل والجمل مبينا لنا ما يكون به العمل مع ملاحظتكم زمننا ووطننا والسلام....."."[18]

وهذا النص ترجمة دقيقة لطريقة الحكم وإدارة شؤون الناس التي تستند على الحنكة والدربة والاستعانة بأصحاب الاختصاص في الدولة الإسلامية أو في الوطن. فيتصرف بحسب النازلة التي تحل ببلاد المسلمين وتستدعي رأي الفقيه[19].

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومن الأمور المستحدثة أيضا، التي اتخذها الأمير رمز السيادة والاستقلال التي ارتبطت ارتباطا وثيقا بنظم الحكم ومفهوم الملك والعلم و النقود والسكة ولما لهما من أهمية كبرى في الحياة العامة ولاسيما المعاملات الدينية المرتبطة بالمعاملات المادية كتحديد الأنصبة الشرعية كمقدار الزكاة والدية والصداق مثلا.

مما يلاحظ أن الأمير عبد القادر أسقط الأسماء والألقاب من سكته، ولم يضع اسمه بصفته حاكما شرعيا لهذه الدولة الجديدة، وقد جرى التقليد على أنها رمز من رموز الحكم في أنظمة الحكم الإسلامي، ووظيفة ضرورية للملك والسلطان، فنقش على الوجه الأول آيات قرآنية ومنها:

-حسبنا الله ونعم الوكيل.

- ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه.

- ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين.

- إن الدين عند الله الإسلام.

- ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا.

واكتفى على الوجه الآخربنقش مكان ضربها (تاقدامت)، وقد كانت عملة الأمير أول عملة جزائرية طرحت للتداول، معبرة عن السيادة الوطنية واستقلالها عن آل عثمان يقول محمد بن عبد القادر في تحفة الزائر:" إن مولانا جعل المسكوكات الجارية في البلاد صرفا معلوما تتعامل به رعيته وسك -نصره الله- نوعين من العملة إحداهما المحمدية والأخرى النصفية فجعل صرف "الدورو أبو مدفع المعروف بأبي عمود" أربعة ريالات وكل ريال فيه ثلاثة "أرباع" "جزائرية" وكل ربع جعل صرفه ثمان "محمديان" وكل محمدية فيها نصفين من السكة الحديدية المضروبة في دار السكة بحيث إذا أطلق الريالات لا يتصرف إلا هذا الصرف وجعل "الدورو الجزائري" ثلاث ريالات إلا ثمان "محمديات"، وبهذا الصرف يعطي راتب العسكر بأصنافه".[20]

وهكذا لم تعط العملة الأميرية استقلالية للعسكر فقط، ولم يعد أجره يعتمد على الدولة العثمانية التي تمثل السلطة الشرعية فحسب في البلاد، بل أعطت دلالة لاستقلال الجزائر عن هذه السلطة وقيام نظام جديد يختلف في اتجاهاته المذهبية وفلسفته عن أنظمة الحكم السابقة تجسده تلك النصوص التي نقشت على العملة ودلالاتها وأبعادها الفكرية ومنها:

- إثبات استقرار الحكم واكتمال السيادة.

- غاية الدولة تحقيق استقلال البلاد ووحدة الأمة والتمسك بالدين الإسلامي وإحياء تراث السلف الصالح.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

– صراع بين ديانتين وحضارتين وقوتين غير متكافئتين، وبين الحق والباطل.

– التعبير عن مفاهيم وتصورات بحسب المرحلة والفترة الزمانية التي تعيشها دولة الأمير، والغرض من جهاده وهو إقامة دولة تتوفر فيها شروط السيادة والاستقلال عن السلطنة العثمانية وسلطنة المغرب.

– تحقيق وحدة الشعب الجزائري وفق مبادئ الشريعة الإسلامية وفضائل القرون الأولى.

– إثبات السيادة والوحدة الوطنية والدينية للشعب الجزائري.

– تثبيت السلطان على القبائل وعلى الجيش والإصلاحات الداخلية.

– حث الجيش على الجهاد وممارسة التأثير النفسي عن طريق القرآن و بواسطة النقد.

–السكة رمز من رموز السيادة والدين وليس للأشخاص والحكام.[21]

الأمير وإصلاح الجهاز الإداري:

يقول المؤرخ والباحث محمد الأمين بلغيث واصفا الجهاز الإداري الأميري" وجهاز الأميري الإداري الذي واجه به الاحتلال الفرنسي لبلادنا كان بمقياس العصر بداية تأسيس لدولة عصرية وتنظيم مؤسسات بلغ درجة كبيرة من الإحكام....وما لم يتمكن الفرنسيون من اختراع ما هو أفضل وأضبط منه عندما آل إليهم حكم البلاد فيما بعد، فاكتفوا باعتماده كما هو دون أن يدخلوا تعديلات تذكر".[22]

قام النظام الإداري الأميري على المزاوجة بين نظام البايلك الملائم للبيئة الجزائرية مع بعض التنظيمات المقتبسة من النظم الإدارية المتبناة بالمغرب لمرونتها وتماشيها مع النظام القبلي السائد في الريف وذلك لأنه يتسم باحترامه لخصوصية كل إقليم.[23]

وعمل الأمير على الحفاظ على متانة هذا الجهاز بتولية الأصلح فالأصلح ,في تسلسل على رأس كل ولاية وكل مصلحة يقول:"كانت أوامري تصل إلى الخلفاء، ومنهم تنزل في تسلسل مضبوط إلى المشايخ إلى أن تصل إلي"[24] وفضل أن يكون هؤلاء من العلماء وأهل الدين بدل الفرسان – الأجواد – لأنهم الأصلح لتسيير شؤون الحكم والحرب والسيادة والإدارة والتنظيم والاتصال والاستعلام،[25] وعمد إلى سن القوانين لمحاربة الفساد والسرقة داخل الجهاز الإداري فيقول:"وأدركت بأنني لن أوفق إلى منع القادة الذين عينتهم من أن يقترفوا اختلاسا أو أستطيع معاقبتهم – فيما إذا اقترفوا شيئا من ذلك – إلا إذا وفرت لهم مرتبا يكفيهم مؤونة العيش، ولذا خصصت من القمح يوميا حتى يتمكنوا من النفقة على ضيوفهم الكثيرين والذين يستقبلونهم بحكم مركزهم ومسؤوليتهم وخصصت للأغا (عشر) جميع ما يتقاضاه من الضرائب وذلك نقدا وعينا".[26]

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولما كان المقصد تحقيق العدل بين الرعية عمد إلى فرض القسم قائلا:" ولحماية الرعية مما قد يلحقهم من مظالم من طرف رؤسائهم فقد أقسم (حلف) الخلفاء والأغوات على صحيح البخاري بأن لا يعدلوا على الحق، وأن يكونوا صادقين في خدمة مواطنيهم،وكنت أسهر بنفسي على جميع أعمالهم".[27]

لقد اتبع الأمير تنظيما إداريا مكنه من تقسيم الدولة الجزائرية إداريا واجتماعيا وسياسيا ومن ثم تسيير شؤونها، وثروتها الاقتصادية بطريقة عقلانية عادلة تحقق الاستقرار الاجتماعي للسكان وخاصة البدو وسكان الريف، الذين يشكلون الأغلبية قياسا بالحضر الذين لا يتعدون 5% ولكن احتلالهم للوظائف الإدارية والأعمال التجارية التي كانوا يقومون بها، ومستواهم الثقافي والمعيشي هو الذي أهلهم لأن يشكلوا جماعة ضاغطة ومؤثرة في الأحداث ومساهمة في تطور نظام الحكم[28]. مما جعل الأمير يعمل على تقوية الجهاز المركزي ويتجاوز مفهوم البنية القبلية إلى فكرة بناء دولة المؤسسات التي تقلص الهوة بين السكان، وتدمج العشائر وتحد من العصبية والجهوية وتحافظ على مصالحهم وتسهر على شؤونهم ويصلح مواردهم ومصارفهم بما يوافق الشريعة، ولذا أبطل أعمال السخرة * والغرامة والمصادرة، وعمم الخدمات والجباية وقضى على الرشوة والاستبداد عندما ربط نظام العدالة بالجهاز الإداري عن طريق المراقبة الدائمة والمستمرة.[29]

* العمل مقابل القوت اليومي

الأمير والإصلاح العسكري:

أراد الأمير قوة عسكرية ونظاما عسكريا يتجاوز القبلية أو القبائل إلى دولة ذات عاصمة متنقلة(الزمالة)،أنشأ بها مصانع البارود والأسلحة، أستحدث بها نظاما للتجنيد يقوم على مبدأ التطوع مقابل أجر محدد وبعض الامتيازات، وجعل تمويل الجيش عن طريق ضريبة خاصة في حالة ضعف دخل الخزينة من ضرائب العشور والزكاة استفتى الفقهاء في شرعيتها.[30]

لقد أدرك الأمير جيدا اختلال موازين القوى العسكرية والسياسية، ولكنه فضل القيام بواجبه الوطني والديني وهذا ما يتضح من خلال رسالته إلى الأسقف دوبيش:

"منذ ثلاثة سنوات كنت أحارب الفرنسيين وليس لي أن أرى نهاية حميدة لي في هذه الحرب مع أني كنت معتقدا أني لم أقم إلا بالواجب الديني وحفظ بلادي، وأخشى أن ألقى شبه الملامة من قومي الذين وثقوا بي وحلفوا ألا يتركوني"[31]، ومما لا شك فيه أن ما قام به في هذا المجال ارتكز على مفهوم الجهاد ليثبت أنه منهاج حياة وعمل يستند على ثوابت عقائدية ودينية فيعرفه في المقراض الحاد:" ليس المقصود من الجهاد والقتال إتلاف العبادة ولا تخريب البلاد ولا الرغبة في الأموال وإنما المقصود دفع الفرد والملأ إلى كلمة حق ولو أمكن حصول ذلك من غير قتال حرم القتال"[32]، وقد ساهم في ترجمة هذه العقيدة الجهادية شخصية الأمير القيادية

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

التي تجلت فيها الحنكة الدبلوماسية والقوة العسكرية، فعكس معرفة كيفية الارتقاء بالواقع القبلي الجزائري إلى مستوى الند وتحدي الواقع الفرنسي، والتفكير في إطار الأمة بعد ما كان التفكير محصورا في إطار مصلحة القبيلة وإرساء ثقافة الوطن والمواطنة.[33]

الأمير وعلاقته بالآخر:

لم تغب عن الأمير عبد القادر أهمية علاقة الآخر به وبدولته كأهمية النقد ككيان له استقلاليته، ويحاول الحفاظ على وحدته ولا يستطيع الاستمرار منفردا ذاتا أو جماعة، ولا يتناقض مع المرجعية العقائدية التي ينتمي إليها والآخر الذي يدخل في علاقة مباشرة وغير مباشرة يصنف عنده حسب هذه المرجعية:

1 - الآخر المسيحي المغاير له في ثقافته وحضارته ودينه وهذا بدوره ينقسم إلى فئتين:

أ - فئة تعادي الله ورسوله وتعادي الأمير وتأتي مستعمرة غاصبة للأرض، يدرك تماما اختلال موازين القوى بينه وبينها يقول في رسالة له:"إن الحرب، إذا ما استؤنفت ستكون السبب في قطع التجارة التي يمكن أن تجني منها البلاد فوائد جمة، كما أنها ستكون حربا عوانا إلى النهاية. ولست غبيا فأدعي أنني أستطيع أن أقف وجها لوجه ضد جيشكم، ولكنني أستطيع أن أناوشه دون هوادة، ولا شك أنني سأضطر إلى التراجع عن بعض المناطق، ولكن ستكون إلى جانبي خبرتي بالبلاد وحنكة وحماسة شعبي العربي وفق ذلك كله ستكون معي يد الله الذي ينصر المظلوم".[34]

ب - فئة مسالمة لا تعادي الحق، وتلك تجمعه بها علاقة المصلحة المشتركة أو العلاقات الدبلوماسية، فقد كتب إلى السيد تيير قائلا:" إنني أهنئ فرنسا على عودتك للوزارة، إن الأعمال التي عرفت بها في السابق والاهتمام الذي كنت دائما تعطيه لمشاكل الجزائر تجعلني أحييك بغبطة"[35]، ورسالته إلى الأسقف ديبوش ردا على طلب إطلاق سراح المساجين[36].

2 - الآخر المسلم الذي تربطه به رابطة الدم واللغة والوطن أوالدين وهذا بدوره ينقسم إلى ثلاث فئات:

أ - فئة موالية للكافر تنصره وتعينه، ومعها نهج الأمير منهجين – أولا– منهج الحوار والنصيحة والتذكير وتصحيح هوية المستعمر في ذهنها والاعتماد على القاعدة الفقهية البراء والولاء*، ثم التهديد والوعيد كما حدث مع القبائل القريبة من الساحل التي استفتى فيها فقيه فاس [37] – كما سبق الإشارة – ومع جيرانه (حكام المغرب وتونس) اللتان"وجد فيهما الخشب المسند والعمالة الواضحة والجبن والفشل في حماية البلاد على الرغم من المعرفة الكاملة بأن العدو واحد ومستقبل المنطقة مرهون باستقرار الجزائر وهو ما أكدته الأيام"[38]. وهذا ما سلكه أيضا مع بعض الطرق الصوفية

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كالتيجانية والطيبية[39] اللتان غاب عنهما إدراك الصراع الحضاري بين المسيحيين والمسلمين يقول": وقد منحنا العفو لجميع السكان بشرط أن يخرجوا من المدينة ويذهبوا ليقيموا في مكان آخر يقع عليه اختيارهم وكلهم غادروا المدينة، فذهب التيجيني وحريمه وأطفاله إلى الأغواط، ولكن ابنه الأكبر ظل رهينة في أيدينا"[40].

ب - فئة لا توالي العدو بل تحاربه ولكن يجد فيها الأمير سببا في جلب الاستعمار وهي لا تختلف عنه في شيء وهم الأتراك والكراغلة كأحمد باي وغيرهم.

ت - فئة تنصره وتواليه وتجاهد إلى جانبه أو تربطه بها روابط وعلاقات صداقة وقربى وأخوة أو وعلاقات دبلوماسية لها أبعادها الإستراتيجية كما كان الحال مع بريطانيا مثلا .

الأمير بين السياسي والمتصوف:

رأينا عند الحديث عن السياسي والفقيه كيف أن الأمير يتصرف حسب النازلة التي حلت ببلاد المسلمين فيستدعي رأي الفقيه للعمل به ولا يقف موقف المفتي، فكيف يكون الحال مع الصوفي؟

جمع الأمير عبد القادر بين السيف والسياسة والتصوف، ولأن التصوف إعداد القلب لمعرفة الحقائق عن طريق الكشف والمشاهدة والزهد والتمسك" [41] وممارسة التطهر والتقشف، والابتعاد عن مغريات الحياة الدنيا والتحلي بالأخلاق الفاضلة والفضائل، وتجنب المزالق والقيام بالواجبات الشرعية .....بالإضافة إلى الخلوة لممارسة العبادة والنشاط الروحي".[42]

ما عبر عنه الأمير في رسالة إلى سلطان المغرب "بأن نفسه تميل إلى الخلوة والعبادة وتنفر من ثقل ما تحمله من أعباء الإمارة في زمان كثر فيه العدو وفسدت فيه الأخلاق".[43]

وما يفسر ميله للزهد واستغراقه في التأمل والنظر انطلاقا من تفعيل الآيات القرآنية بما يتفق وعدم الاستغراق في التعبد والإخلاد إلى الخلوة والانقطاع إلى الوحدة، بل استجابة للواقع والوضع والتكيف معه بيقظة روحية ونفسية قادرة على المشاركة والحوار[44]. فجاء موقفه من الأديان والعقائد ومواقفه المختلفة اتجاه القضايا المتعددة في إطارها الروحي وبعدها التاريخي ونزعتها الإنسانية كما دعت إليها تعاليم الطريقة القادرية التي تعتمد"على العلم والأخلاق والصبر والإتقان والصدق وذكر الله والخوف منه، وحب الناس والابتعاد عن الدنيا"[45]. فكان تصوفه في نزعته الإنسانية أكبريا *:آمن بالتكافؤ الثقافي والروحي والمعرفي وبالكمال الإنساني، فتجسد مفهوم الإنسان الكامل في جنوده وفي

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

*نسبة الى الشيخ ابن عربي

الإنسانيين الغربيين وفي الساسة ورجال الكنيسة وفي شخصه.

ربما لأنه أدرك – كما قال برونوا إينيين – في"خضم آلامه في المنفى أن السياسة تضيق المدى الكوني، أما القداسة فهي العكس تزيده سعة وبراحا"[47].

أما في وحده وجوده فقد رفضها بالقول الصريح في المواقف:

"....واحذر أن ترميني بحلول أو اتحاد أو نحو ذلك، فإني برئ من جميع ذلك ومن كل ما يخالف كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم"، ولكنه يقول بالفيض شعرا:

أمولاي إني عبد ببابك واقف لفيضك محتاج لجودك مضطر

فنحن بضوء الشمس والغير في دجى وأعينهم عميٌ وأذانهم وقـر

لقد استطاع الأمير عبد القادر الجزائري بعلمه و عمله و جهاده و زهده الجمع بين الواقع والمثال، بين النموذج الفكري – الأخلاقي والواقع المجتمعي فالصوفي الكامل، بتعبير "العربي الدرقاوي" هو الذي يكون في غاية السكر وفي غاية "الصحو" الذي هو عين مقام الجمع بين النموذج الأخلاقي والظروف الواقعية...."[50]

وهو القائل:

ويشرب كأسا صرفة من مدامة فيا حبذا كأس، ويا حبذا خمر

معتقة من قبل كسرى مصونة وما ضمها دن ولانالها عصر

هي العلم كل العلم والمركز الذي به كل علم كل حين له دور.[51]

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الخاتمة:

الأمير عبد القادر شخصية متعددة الأبعاد، كثيرة المفارقات مثيرة للجدل، جمع بين منظومة عقائدية عرفانية وحنكة سياسية أخرجته من خلوة الصوفية إلى ساحة الوغى، مدافعا عن الدين والوطن، ونموذج إنساني ينشد الحوار المؤدب المتحضر بين الثقافات والأديان ومؤسس فلسفة التسامح من خلال فلسفة إنسانية تطرح الكثير من الحلول لكثير من القضايا التي يعيشها العالم المعاصر*، هو كما قالت عنه حفيدته الأميرة بديعة :"والحقيقة أن مقاومة الأمير لم تتوقف ضد أعداء دينه، تابعها الأمير وأصحابه حتى في سجنه في فرنسا،قاوم أعداءه بالصبر والتقوى،ولم يحن رأسه ولم يستسلم، ولم يستنجد أحدا، وتابع مقاومته في بلاد الشام والأدلة كثيرة ومتعددة وموثقة"[52].

الهوامش:

1 –كامل الشيرازي, الأمير عبد القادر الجزائري يعو بقوة في الذكرى المئوية الصانية(من كلمة الغلاف),
http/www. Djelfa / v b /image/ emir abdelkader.jp9

2 –عبد العزيز بن مسعود الضريحي. مناهج تأليف الفقهاء في التراث.

http/www.feqhweb. com/ article. Php.id=52do=viewcat

3 –أحمد النيفر. مدارس الإصلاح والنهضة في الفكر الإصلاحي المغاربي القضايا والإعلام والمنهج

http/www. ulmultaka. Net/ shou maqual.php. cat=19id=620

4 –عبد الكريم زيدان. الفرد والدولة في الشريعة الإسلامية.بغداد1965 ص ص 12.11

5 –ابن تيمية السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية. مراجعة وتحقيق محمد عبد الله سليمان.مكتبة أنصار السنة المحمدية. مطبعة الجهاد القاهرة 1961. ص ص 172–173.

6 –حسين جمعة. التجربة النضالية الوطنية للأمير عبد القادر الجزائري

http/ www/ jumaa. Syriaprof.com/shou php ? p= poste. Id=1845

7– سليمان عشيراني. الأمير عبد القادر– مسجلات في قضايا اللغة. المعرفة فقه الخطاب القرآني. دار الغرب للنشر والتوزيع. مكتبة 7– الإسكندرية 2004 ص8

8– شارلز خنري تشرشل. حياة الأمير عبد القادر. ترجمة وتقديم وتعليق أبو القاسم سعد الله. دار الرائد الجزائر. عالم المعرفة. - الجزائر ص

9 – عبد القادر الجزائري؟ ذكرى العاقل وتنبيه الغافل. تحقيق وتقديم ممدوح حفي بيروت 1966. ص3

وهو متأثر في ذلك بأرسطو خاصة أن الكثيرين أشاروا إلى دراسة فلسفة أرسطو.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

10- الأمير عبد القادر الجزائري. ذكرى العاقل وتنبيه الغافل, مصدر سابق ص 75

11- أحمد برقاوي.عودة ذكرى العاقل وتنبيه الغافل للأمير عبد القادر, مجلة لنهج العدد 38.

السنة 11 شتاء 1975ص35

12- حسين جمعة. لمرجع السابق

13- شارلي نمري تشرشل. حياة الأمير عبد القادر. مرجع سابق ص86

ّ وهو غي هذا متأثر بفلاسفة. اليونان خاصة أرسطو.

14- المرجع نفسه

ّ الدولة الشرعية عند ابن تيمية مثلا.

15- المرجع نفسه. الصفحة نفسها

16- المرجع السابق ص 366

17- التيجاني عبد القادر. في فقه الإصلاح الإسلامي. منتدى ابن رشد المعرفي

جيل التراث والعصر عدد 05 /2012/1

18- حبيب منسي.الذخر في فكر الأمير عبد القادر من خلال المراسلات

http/www١. Anfass/index.php ?option= com.contentof view=articcle

lct= 4608: q-q 8cat id = 27 itemid 487

19- المرجع نفسه

20- الأمير محمد بن عبد القادر الجزائري. تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر. شرح وتعليق مما حقي. دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر- دمشق 1964. ج1ص .197

21- صالح بن قربة. نقود للأمير عبد القادر الجزائري. رمز السيا

22- محمد الأمين بلغيث. تاريخ الجزائر المعاصر.....ص20

23- ناصر الدين سعيدوني. عصر للأمير عبد القادر الجزائري. مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البايطيني للإبداع الشعري 200,ص 187

24- محمد الأمين بلغيث. المرجع السابق ص24

25- يحي بوعزيز.علاقات عصر للأمير عبد القادر وحلفائه بالمملكة التونسية- أعمال الملتقى عصر للأمير عبد القادر. مطبوعات جامعة الجزائر 1998ص 84

26- المرجع نفسه, الصفحة نفسها.

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

27- بسام العسلي. عصر للأمير عبد القادر الجزائري سلسلة الجهاد الشعب الجزائري.

العدد4. دار النقاش بيروت 1986ص 39

28- ناصر الدين سعيدوني. المرجع السابق ص 110

29- المرجع نفسه الصفحة ص ص 216-217

30- المرجع نفسه ص219

31- سهيل زرقين الخالدي. الإشعاع المغربي في المشرق- دور الجالية الجزائرية في بلاد الشام ص ص 14-15

32- الأمير عبد القادر الجزائري. المقراض الجاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالكفر والإلحاد. مكتبة الإسكندرية- دار الفكر 2000ص 335

33- عيادي سعيد. آليات إعادة البناء الحضاري

34- شارلي هنري تشرشل. المرجع السابق ص 225

35- المرجع نفسه ص 229

36- يحي بوعزيز المرجع نفسه ص 92

ّ * قاعدة فقهية مستنبطة من القرآن الكريم الآية يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض زمن يتولهم فإنه منهم. إن الله لا يهدي القوم الظالمين. المائدة 51

37 حبيب مونسي. الآخر في فكر الأمير عبد القادر من خلال المراسلات.المرجع السابق

38- لوسان فلتزي. المغرب العربي قبل احتلال الجزائر. ترجمة صحادي الساحلي.

سراس للنشر تونس 1994ص 145

39- لطيفة الأخضر . الإسلام الطرقي- دراسة في موقف من المجتمع ومن القضية الوطنية- سراس للنشر تونس 1993ص 79

40- شارلي هنري تشرشل المرجع نفسه ص 176

41- محمد صالح أيت علجت. دراسات في الخطاب الصوفي عند أقطاب الطريقة العلاوية جمعية الشيخ العلاوي للتربية والثقافة الصوفية- الجزائر 2009ص 31

42- عبد العزيز منهبي. الزوايا والصوفية والعزابة والاحتلال الفرنسي في الجزائر. دار المغرب للنشر والتوزيع- زهران ص ص 96-97

43- جواد المرابط. التصرف والأمير عبد القادر الحسني. الجزائر عاصمة الثقافة العربية

2007ص 85

44- سليمان عشيراني. مرجع سابق صفحة 11

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

45- عبد العزيز شهبي. مرجع السابق ص 101

46- سليمان عشيراني . مرجع نفسه ص13

47- برونو ايتيس. عبد القادر الجزائري. ترجمة ميشل خزري..دار عطية- بيروت دمشق 1997 ص 266

48- الأمير عبد القادر الجزائري الموافق ج2 ص 869

49- الأمير عبد القادر الجزائري . ديزان الأمير عب لقادر ، شرح وتعليق ممدوح خقي، دار مكتبة الحياة – بيروت 1965ص 56

50- عبد المجيد الصغير ، الصريح والمضمر في الخطاب الصوفي من شرعية إلى السلطة المعرفية في الثقافة والفلسفة، تنسيق سالم ياقوت منشورات كلية الآداب- الرباط 1997ص 62

51- الأمير عبد القادر الجزائري، ديوان الأمير عبد القادر. مصدر سابق ص 56

ذ منحت جائزة التسامح كأحد أبرز مؤسسي القانون الإنساني الدول وحقوق الإنسان في 19/ 11/ 2011

52 – الأميرة بديعة الحسني، وما بدلوا تبديلا، قضايا دقيقة عن جهاد الأمير عبد القادر الجزائري في دولة وهجرته، دار الفكر- دمشق 2008 ص 7

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com